

## توماس هوبز" من اللويثان القديم إلى لويثان التقنيّة"

حميدات عبد العالي

جامعة وهران - السانبا.

اعتبرت رؤية الحدائث الأوربية مساحة الأساطير مساحة غير واقعية ولا عقلانية، ربطت الأسطورة بالدين والخرافة في ثلاثية تعكس - في نظرها- أسباب التخلف وتناقض العلم، وقصر العقل على الإحاطة بالواقع ومنهج التجريب وما يدفع من الضوابط والموضوعية، لكن علم الاجتماع الغربي شهد عودة الاهتمام بالأسطورة، حيث اعتمد ثلة من الفلاسفة على توظيف الأسطورة باعتبارها أداة لفهم الوجود والتاريخ؛ وتفسيره عبر نسق من الأفكار جماعية في ثقافة ما .  
ومن هؤلاء الفلاسفة توماس هوبز الذي ارتكزت نظريته السياسية على الأسطورة؛ حيث إنّه لم يكن يهدف من وراء توظيفه للأسطورة في فكره الفلسفي إلى تجاوز الحقيقة نحو الخيال، بل تجاوز الخيال نحو الحقيقة الفلسفية بصورة خاصة. ومن هنا أصبحت الأسطورة عند هوبز تخدم العقل لا الخيال للتعبير بطريقة رمزية عن نظريته السياسية. كما أنّ معرفة وفهم الطبيعة الخاصة بالتصور الأسطوري - الفلسفي، ليس فقط من خلال نتائجه فحسب، بل من خلال معرفة كيف يرتبط نمو المفاهيم الفكرية الفلسفية بمفاهيم الأفكار الأسطورية وفي أي السمات الجوهرية يتطابقان، كل هذا يتطلب منا حقاً أن نبحت عائدتين في تاريخية الأسطورة. فما نريد دراسته هنا هو طبيعة التحولات التي طرأت على أوصاف التنين في العهد القديم وما هي النصوص الذي أثرت على فكر توماس. وكيف وظّف توماس هوبز هذا التنين في فكره السياسي؟  
اللويثان مفهومه وتاريخيته في الكتاب المقدس:

فكلمة اللويثان « Léviathan » كلمة عبرية معناها المتلوي أو المثقف،.التنين حيوان أسطوري يتكون من عناصر مختلفة، غير أنّه بوجه عام يشتمل على جسم أفعى ومخالب أسد ورأس تمساح، وجسمه مغطى بجراشيف. هو رمز للشر، ويرتبط بوجه عام بالآلهة، كما أنّه يرتبط بالمياه، وأحياناً يرتبط بالأماكن الصحراوية والخرائب.<sup>1</sup>

لقد ذُكرت أسطورة التنين في المصادر الأدبية "كأفعى يعيش في قعر العالم السفلي المتصل بمياه البحر الأول، أو عفريت يسكن الغابة. وكانت أول مرحلة قطعها شكل التنين في الأساطير القديمة هي مرحلة الغموض والإبهام، أو مرحلة اللاتحديد واللاشكل."<sup>2</sup> إلا أنّه يُلاحظ تصعيد فكرة التنين إلى حد تشخيصه في الآلهة. ثم تتطور المعالم وترسم الملامح، فيصبح التنين حية ملتوية، وحية ملعونة ذات رؤوس سبعة ويصبح هائلاً ومخيفاً ذا شذقين. ويوضح الدارسون أنّها وردت كما هي بكثرة في أسفار العهد القديم، لأنّ بعض مترجمي العهد القديم جعلوا معناها فوضوها باللفظ العبري على نحو ما ووردت في سفر أشعياء على شكل حية: " <sup>1</sup> فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يُعَاقِبُ الرَّبُّ بِسَيِّفِهِ الْقَاسِيِ الْعَظِيمِ الشَّدِيدِ لَوِيثَانَ، الْحَيَّةَ الْهَارِيَّةَ. لَوِيثَانَ الْحَيَّةَ الْمُتَحَوِّبَةَ، وَيَقْتُلُ التَّنِينَ الَّذِي فِي الْبَحْرِ."<sup>3</sup> وأحياناً تترجم بالتنين: " <sup>4</sup> أَمَّا ذَلِكَ اللَّيْلُ فَلْيُمْسِكْهُ الدُّجَى، وَلَا يَفْرَحْ بَيْنَ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَلَا يَدْخُلْ فِي عَدَدِ الشُّهُورِ. 7 هُوَذَا ذَلِكَ اللَّيْلُ لِيَكُنْ عَاقِرًا، لَا يُسْمَعُ فِيهِ هُتَافٌ. 8 لِيَلْعَنَهُ لَاعِنُو الْيَوْمِ الْمُسْتَعْدُونَ لِإِيقَاطِ التَّنِينِ 9." <sup>4</sup> كما أوضحت إشارة إنجيلية تسمية الحية بالشیطان، جاءت في الإصحاح الثاني عشر من أعمال الرسل حيث تقول: "إنّه التنين العظيم، الحية القديمة، المدعو إبليس، الشيطان الذي يضلّ العالم."<sup>5</sup>

كما نجد في سياق سلسلة من الترميمات التي يمتلئ بها سفر أشعياء. نص يحيي ذكرى صراع التنين مع الرب الذي جرى عند بدء العالم، ترمناً بعظمة الرب ومجده، "9 اسْتَيْقِظِي، اسْتَيْقِظِي! الْبَسِي قُوَّةً يَا ذِرَاعَ الرَّبِّ! اسْتَيْقِظِي كَمَا فِي أَيَّامِ الْقَدَمِ، كَمَا فِي الْأَدْوَارِ الْقَدِيمَةِ. أَلَسْتِ أَنْتِ الْقَاطِعَةُ رَهَبَ، الطَّاعِنَةُ التَّنِينِ؟ 10 أَلَسْتِ أَنْتِ هِيَ الْمُنَشَّفَةُ الْبَحْرِ، مِيَاةَ الْعَمْرِ الْعَظِيمِ، الْجَاعِلَةَ أَعْمَاقَ الْبَحْرِ طَرِيقًا لِعُبُورِ الْمَقْدِينِ؟"<sup>6</sup>

أما في سفر المزامير فيستعرض حالة التدهور التي انتابت المقدسات، ثم يستدعي الرب على الأعداء. تمجيداً لعظمة الرب وتذكيراً بمجده، يجيب ذكرى انتصار الرب على التنانين وعلى "لويثان"، في قوله "أنت شققت البحر بقوتك. كسرت رؤوس التنانين على المياه. أنت رضضت رؤوس لويثان. جعلته طعاماً للشعب لأهل البرية"<sup>7</sup> لعل هذه الصورة التي وردت في المزمور الرابع والسبعين هي التي استهوت الفيلسوف هوبز، فهذا الحيوان المخيف بروؤوسه المتعددة أقوى من أن يستطيع فرد من البشر أن ينازله، ولا يستطيع الناس رض رؤوسه لأنه أشد بأساً وبطشاً منهم جميعاً.

في حين يذهب الباحث إمام عبد الفتاح إمام أن الوصف المسهب في سفر أيوب لأعضاء التنين وقوته وسيطرته، هي فكرة أترت على فكر توماس هوبز، ومن أجلها أطلق على الدولة القوية المتناسكة التي يريد إقامتها اسم التنين، ذلك إن "الأساطير ليست إلا لونا من ألوان التصوير البياني لإحساس الإنسان بقوى الطبيعة"<sup>8</sup> أي أن توماس وظف الأسطورة في نظريته السياسية للتعبير بالصورة عن قوة الدولة، فصارت بذلك أسطورة التنين بالنسبة لتوماس هوبز امتداد رمزي للقوة والجبروت.

فقد جاء في سفر أيوب الوصف التالي للتنين:<sup>9</sup> لَا أَسْكُتُ عَنْ أَعْضَائِهِ، وَخَبِرَ قُوَّتِهِ وَبَهَجَةَ عُدَّتِهِ. 13 مَنْ يَكْشِفُ وَجْهَ لَيْسِهِ، وَمَنْ يَدْتُو مِنْ مَثَى لِحْمَتِهِ؟ 14 مَنْ يَفْتَحُ مِصْرَاعِي فِيمَه؟ دَائِرُهُ أَسْنَانِهِ مُرْعِبَةٌ. 15 فَخَرُّهُ بَحَانٌ مَابِعَةٌ مُحْكَمَةٌ مَضْغُوطَةٌ بِحَاتِمٍ. 16 الْوَّاحِدُ يَمَسُّ الْآخَرَ، فَالرَّيْحُ لَا تَدْخُلُ بَيْنَهُمَا. 17 كُلُّ مِنْهَا مُلْتَصِقٌ بِصَاحِبِهِ، مُتَلَكِّدَةٌ لَا تَنْفَصِلُ. 18 عِطَاسُهُ يَبْعَثُ نُورًا، وَعَيْنَاهُ كَهُدُبِ الصُّبْحِ. 19 مَنْ فِيهِ تَخْرُجُ مِصَابِيخُ. شَرَارُ نَارٍ تَتَطَايَرُ مِنْهُ. 20 مَنْ مِنْ خَرْبِهِ يَخْرُجُ دُخَانٌ كَأَنَّهُ مِنْ قِدْرِ مَنْفُوخٍ أَوْ مِنْ مِرْجَلٍ. 21 نَفْسُهُ يُشْعَلُ جَمْرًا، وَلِهَيْبٍ يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ. 22 فِي عُنُقِهِ تَبِيْثُ الْقُوَّةِ، وَأَمَامَهُ يَدُوسُ الْهَوْلُ. 23 مَطَاوِي لِحْمِهِ مُتَلَاصِقَةٌ مَسْبُوكَةٌ عَلَيْهِ لَا تَتَحَرَّكُ. 24 قَلْبُهُ صُلْبٌ كَالْحَجَرِ، وَقَاسٍ كَالرَّحَى. 25 عِنْدَ نُهُوضِهِ تَفْرَعُ الْأَقْوِيَاءُ. مَنْ الْمَخَافِ يَبْتَهُونَ. 26 سَيْفٌ الَّذِي يَلْحَمُهُ لَا يَفُومُ، وَلَا زُمْعٌ وَلَا مِزْرَاقٌ وَلَا دِرْعٌ. 27 يَحْسِبُ الْحَدِيدَ كَالْتَبَنِ، وَالنُّحَاسَ كَالْعُودِ النَّخْرِ. 28 لَا يَسْتَفْرِهُ نُبُلُ الْقَوَسِ. حِجَارَةُ الْمِقْلَاعِ تَرْجِعُ عَنْهُ كَالْقَشِّ. 29 يَحْسِبُ الْمَقْمَعَةَ كَقَشٍّ، وَيَضْحَكُ عَلَى اهْتِرَازِ الرُّمْحِ. 30 تَحْتَهُ قُطْعُ خَرْفٍ حَادَّةٌ. يُمَدُّ نَوْرَجًا عَلَى الطَّيْنِ. 31 يَجْعَلُ الْعُمُقَ يَغْلِي كَالْقَدْرِ، وَيَجْعَلُ الْبَحْرَ كَقَدْرِ عِطَارَةٍ. 32 يُضِيءُ السَّبِيلَ وَرَاءَهُ فَيَحْسِبُ اللَّجُّ أَشْيَبَ. 33 لَيْسَ لَهُ فِي الْأَرْضِ نَظِيرٌ. صُنِعَ لِعَدَمِ الْخَوْفِ. 34 يُشْرِفُ عَلَى كُلِّ مُتَعَالٍ. هُوَ مَلِكٌ عَلَى كُلِّ بَنِي الْكِبْرِيَاءِ."<sup>10</sup>

تلك، إذن، بعض مواصفات التنين التي ذكرت في سفر أيوب، وهي مواصفات رسمها هوبز على شكل صورة عملاق ضخم على واجهة كتابه اللويثان؛ يتألف جسمه وأطرافه من ألوف الأفراد، يحمل باليد اليمنى سيفاً مسلطاً، وباليد اليسرى عصا أسقفية.

من الواضح أن الفيلسوف هوبز قد استفاد من مضمون الأسطورة " فهي تُعدّ الصورة الفطرية الساذجة لعقائد القدماء "<sup>11</sup>، وربما كانت له فلسفة وبيانا لأفكاره السياسية. إن أهم ما يجمع بين رمز الدولة وأسطورة التنين هو تلك العبارة التي أخذها هوبز من سفر أيوب ألا وهي "هُوَ مَلِكٌ عَلَى كُلِّ بَنِي الْكِبْرِيَاءِ"، إن فعالية هذه العبارة تكمن في تجسيد هذا التنين للحاكم الذي بيده كل مقاليد الحكم، "فهو من يسن الشرائع ويضع القوانين، ويشرف على الحقول والصناعة والزراعة والمدن والقرى والكنائس والجامع والقلاع والحصون والغابات والقصور... الخ، فلا شيء يفلت من قبضته، وإرادات جميع الأفراد الشعب تتحدد في إرادة واحدة هي إرادة هذا الحاكم، الذي يسميه هوبز الإله الغاني."<sup>12</sup>

وتذكر المصادر أن التنين هو وحش قوي جداً كان يحكم بقية الوحوش الأخرى، لكن ذات يوم قرّرت هذه الوحوش التمرد عليه والخروج من سيطرته، فترزع عرشه وكاد أن يسقط لولا أنه استجمع قواه وكان لهم بالمرصاد وأوقف عصيانهم. ربما هو ما يفسر ما ذهب إليه توماس هوبز حيث يرى: "أن الحاكم المتعاقد حوله يجب أن يكون شبيهاً باللويثان بحيث يكون له كل

الصلاحيات التي تسمح بردع كل ترمد محتمل يعيد المجتمع إلى حالة الطبيعة.<sup>13</sup> فالتنين رمز واضح للقوة والسلطة العظيمة والمطلقة القادرة على إنجاز مهامها باقتدار، ومع ذلك فربما كان مصدر التشبيه الذي استعاره هوبز من أسطورة التنين أعم من هذا بكثير؛ ذلك لأن مهمة لويثان حسب هوبز " أن تكون القوة القاهرة الرادعة التي تخرج الفرد من حالته الطبيعية المتميزة " بالكبرياء والبخل والطموح والخوف من الموت " إلى حالة القوانين الطبيعية المتميزة بالعدل والإنصاف والتواضع والرّحمة".<sup>14</sup> فبدون هذه القوة لا يكون أي معنى لأي اتفاق يقيمه أفراد فيما بينهم. ومن خلال هذا يتضح أنّ السلطة المطلقة لدى توماس هوبز لا تقوم إلاّ عن طريقة الضبط لمجال السيطرة والسلطة. فالويثان، إذن، يمثل السيادة لتلك السلطة المطلقة، التي تعتمد إلى توحيد الإيرادات المتباينة من أجل المجموع، حيث يقول: " هو السيف المسلط فوق رؤوس الأفراد ليمنعهم من الاستسلام لطبيعتهم الشريرة".<sup>15</sup> ومن خلال ذلك كلّه نستنبط فكرة مهمة مؤداها أنّ الأسطورة حسب ما يرى بيرك: " أنّها ليست نقيض علم التاريخ بل هي قصص تاريخية كبرى لها وظيفة تفسيرية مهمة، ودور مهم في تدعيم الروابط الاجتماعية وتفسير علاقات السلطة، وإنّما تعبير عن الوعي الجماعي، وهذا الوعي ليس مناقضاً للعقلانية بالضرورة بل هو مساحة من مساحات العقل الإنساني".<sup>16</sup> وهذا ما لاحظناه حين وظّف هوبز أسطورة التنين لتوضيح نظريته السياسية بحيث جعل للويثان ككيان أسطورة مؤسسة للدولة الحديثة، لها عنصران الطبيعة والقانون يقول: " ذلك أنّ الطبيعة والقانون يحضران في جسد اللويثان، الوحش المارد، لإعطائه الحياة على الرغم من أنّ خالقه يعطيه، بشيء من القلق، "الإله الفاني" إنّّه الدولة الحديثة في شخصها".<sup>17</sup>

أسطورة البهيموث:

" أمّا بهيموث فهو فرس البحر بحري وبري وهو من أعظم الحيوانات وأقواها أشدها، له ناصية كناصرية الفرس ورجلاه مشقوقتان كالبقرة وهو أفضس الوجه له ذنب قصير يشبه ذنب الخنزير وصورته تشبه صورة الفرس إلاّ أنّ وجهه واسع وجلده غليظ جدًّا وهو يصعد إلى البر يعرى الزرع وربما يقتل الإنسان وغيره".<sup>18</sup> فأسطورة البهيموث هذه قد استعارها الفيلسوف هوبز ليكتب تاريخ الحروب الأهلية بعنوان -بهيموث- وهو الاسم الذي أطلقه على "البرلمان طويل الأجل" الذي عاينه كرامويل ثم حطّمه - مفسراً على ضوءه آرائه عن الإنسان والمجتمع.<sup>19</sup> نجد في سفر أيوب وصف مسهب للبهيموث: "هُوَ دَا بَيْمُوثُ الَّذِي صَنَعْتُهُ مَعَكَ يَأْكُلُ الْعُشْبَ مِثْلَ الْبَقْرِ. 16 هَا هِيَ قُوَّتُهُ فِي مَنِيهِ، وَشِدَّتُهُ فِي عَضَلِ بَطْنِهِ. 17 يَخْفِضُ ذَنْبَهُ كَأَرْزَةٍ. عُرُوقُ فَخِذَيْهِ مَصْفُورَةٌ. 18 عِظَامُهُ أَتَائِبُ نُحَاسٍ، جِزْمُهَا حَدِيدٌ مَمْطُولٌ. 19 هُوَ أَوَّلُ أَعْمَالِ اللَّهِ. الَّذِي صَنَعَهُ أَعْطَاهُ سَيْفَهُ. 20 لِأَنَّ الْجِبَالَ تُخْرِجُ لَهُ مَرْعَى، وَجَمِيعَ وُحُوشِ الْبَرِّ تَلْعَبُ هُنَاكَ. 21 تَحْتِ السَّدَرَاتِ يَضْطَجِعُ فِي سِتْرِ الْقَصَبِ وَالْعَمَقَةِ. 22 تُظَلِّلُهُ السَّدَرَاتُ بِظِلِّهَا. يُحِيطُ بِهِ صَفْصَافُ السَّوَاقِي. 23 هُوَذَا التَّهْرُ يَفِيضُ فَلَا يَفِرُّ هُوَ. يَطْمَرِنُ وَلَوْ أَنْدَقَ الْأُرْدُنُّ فِي فَمِهِ. 24 هَلْ يُؤَخِّدُ مِنْ أَمَامِهِ؟ هَلْ يُثَقِّبُ أَنْفَهُ بِجِزَامَةٍ؟"<sup>20</sup>

يقول هوبز في خاتمة الفصل الأول الهام من البهيموث: "أخال أنّه ينبغي إقناع الناس بمحبة الطاعة، من أجل ذلك يتوجب على المبشرين والنبلاء أن ينهلوا المبادئ الجيدة من الجامعات في فترة شبابهم. لن يكون لنا سلام دائم ما لم يتم إصلاح الجامعات هذا الاتجاه وما لم يدرك الاكليروس بأنّ ليس لهم أية سلطة عدا تلك التي تمنحهم إياها السلطة المدنية".<sup>21</sup>

"يقدم هوبز في كتابه البهيموث تحليلات مفصلة حول فائدة الدين للاكليروس، وحتى أكثر المذاهب السكولاستيكية تجريداً تخضع للعلاقات المصلحية الفعلية. يدعى المتحاوران أ وب يحلل أ بعد النقاش طويل حول السكولاستيكية، دلالة تبني الفلسفة الأرسطوطالسية. إنّ الأخيرة تمّ أيضاً تحويلها إلى عنصر في الدين ذلك إنّها تسمح بالدفاع عن مجموعة أقسام لا معقولة من العقيدة حول طبيعة جسد المسيح ووضع الملائكة والقديسين في الجنة".<sup>22</sup>

وفي الأخير يمكن التساؤل حينئذ كيف أمكن ظهور التصورات الأسطورية والميتافيزيقية والدينية، كيف أمكن للناس أن يخضعوا طيلة قرون للاعتقاد بوجود مواضيع غير طبيعية ومتعالية. ما مصدر هذه الأخطاء الملفتة للنظر؟ وما الغاية منها؟ وهو ما يطرح مشكلة الايدولوجيا التي لا نستطيع الخوض فيها إلا في الفكر المعاصر مع هيرماس.

لا يمكن لأحد أن ينكر ما بلغت إليه الإنسانية اليوم من حيث القدرات التكنولوجية والتقنية، وهذا أمر ليس وليد الصدفة أو اللحظة، بل هو نتاج تراكم تاريخي موغل في القدم ساهمت فيه الإنسانية جمعاء كل حسب إمكاناته وقدراته المشروطة تاريخياً وسوسيو معرفياً.

كما أنه لا يمكن إنكار فضل المجتمع الغربي في هذا التطور فهو لا يزال ومنذ عدة قرون يقود سفينة التقدم التقني والعلمي في العالم، فبواسطة هذا التقدم تم تسهيل حياة الإنسان في العيش والحياة، فقد قربت المسافات وسهلت الأعمال وطوّرت حياة الإنسان... فهدف هذا التطور منذ البداية تمكين الإنسان من السيطرة على الطبيعة والتحكم فيها. لكن كما هو ملاحظ تحول الأمر إلى عكس ذلك فأصبح الإنسان مهمّناً عليه عوض أن يكون المهمّناً، فقد تحكّمت فيه التقنية وأصبحت هي المحرّك الفعلي لسلوكاته وأفعاله وأفكاره وتصوراتهِ للحياة، فأضحّت التقنية بالنسبة له أيدولوجيا مهمّنة على حياته،

فالتقنية هي بالقدر الذي تنعكس فيه على الانجاز الأدواقي والآلاتي، كالانترنت والكمبيوتر في عصر المعلومات، والتقدم العلمي وتقنيات السيطرة الأخرى، فإنّها أيضاً قد تطورت وتغيّرت إلى شكل آخر يجعلها تشابه اللويثان الهوزي في السيطرة على كل شيء إنّه اللويثان الجديد؟ إذن كيف تقوض التقنية الديمقراطية؟ وهل المقصود بها هنا البحث عن الحرية المفقودة أم ماذا؟.

لويثان التقنية:

"الايدولوجيا بدأت تاريخياً كنسوية للسياسة بشكل من أشكال المقدّس والتراث الديني، والحقوق الإلهية، وتطورت نظرياً مع ماركس لتبين أنّها قد اتخذت منحى طبقيّاً اجتماعياً لتسوية السلطة السياسية، إلا أنّ تجلّي الأمر بوضوح أكبر مع مدرسة فرانكفورت ولا سيما مع هيرماس يرى أن المجتمعات الصناعية المعاصرة قد استبدلت تسويغات المشروع السياسية التقليدية، بتسويغات علمية وتقنية، أي إيدولوجيا العلم والتقنية." <sup>23</sup> فهذه الايدولوجيا قد أنتجت بسبب التّطرف الوضعي الذي أعطى الفرادة في تملك الحقيقة للعلم، وإنشائها (الوضعية) بتلك العقلنة التكنولوجية، فالوضعية كانت وراء تبرير العقلانية التكنولوجية وبالتالي قامت بعملية التبرير التي أصبحت تمارس على الإنسان. <sup>24</sup> يفهم من هذا أنّ التقنية تشكل وجهين، إحدهما أداة للإنسانية وسلوك لها، والثانية هي وسيلة للسيطرة على الإنسان وتحويله أداة لها، فالتقنية بعدما كانت وسيلة للتطور والازدهار، وأداة في يد العقل، أصبحت فجأة تعمل من أجل الموت والخراب، كما وصلت إلى ذروة النقاش فيما يمس الجانب البيولوجي والتحكم بصفات الإنسان.

وفي هذا الصدد يرى بول ريكور: "أن كلّ علم يتبع أنموذج العلم الطبيعي يختزل فكرة الفعالية البشرية الذاتية إلى عقلية صناعية. أمّا بالنسبة لهرماس يمثل هذا الاختزال الايدولوجيا الحديثة التي تنطلق من اختزال الفعل إلى عمل، والعمل إلى فعل ذرائعي، والفعل الذرائعي إلى تكنولوجيا التي تبتلع عملنا." <sup>25</sup>

يبدو أنّ تطوّر وتغيّر التقنية جعلها تشابه اللويثان الهوزي في السيطرة على كل شيء، إلا أنّ هذه السيطرة - الايدولوجيا، لا تنجز بالشكل المخيف والمؤدي فعلاً إلى غياب الإنسان وموته،" إلا مع دخول الفاعلين الاستراتيجيين في لعبة التقنية، فمع الفعل الاستراتيجي تتشكل تقنية وإيدولوجيا يصعب التحرّر منها أو القضاء عليها." <sup>26</sup> ذلك إنّ العلاقة بين التقنية والإنسان هو أن

التقنية بما هي تقنية لا يمكنها السيطرة على الإنسان، إلا عبر هاجس أقل نسبيًا، ينبثق عن حاجة الإنسان المتزايدة لها، أما الشكل الأكبر لتلك السيطرة فهو حينما يسيطر عليها العقل الأداة - التقني، الذي ينعكس بصورة استراتيجية مختزقة للمجال الاجتماعي - الإنساني، ليهيمن عليه سياسيًا واقتصاديًا.<sup>27</sup> هذا يقودنا إلى الحديث عن موضوع الفاعلية الاستراتيجية، لأنّها هي من ستمارس الأدوات بأوضح صورها. إذا كان الفعل العقلاني الهادف - الأداة ينطوي على موقف محسوب، وبعيد عمّا هو شخصي، " ذلك أنّ موضوعه هو الطبيعة، فالفعل الاستراتيجي STRATEGICAL ACTION يتميّز بطابعه الشخصي، فهو يشتمل على البشر، أفراد جماعات، يعملون دائمًا لتحقيق النجاح.<sup>28</sup>

وفي إطار ذلك نجد هابرماس يميز بين الفعل التواصلية من ناحية والفعل الأداة والاستراتيجي من ناحية أخرى. حيث يقول: " إنني أضع الفعل الأداة والاستراتيجي في السلّة نفسها. ولكن هناك في الواقع فارق مهم بين الفعل الأداة والاستراتيجي؛ فحسب ما يرى هابرماس، يكون الفعل أدائيًا عندما يقدم الفاعل على فعل كوسيلة لغاية مرجوة؛ أمّا الفعل الاستراتيجي فهو ضرب من الفعل الأداة ينطوي على حمل الآخرين على القيام بأفعال كوسيلة لتحقيق المرء غايته.<sup>29</sup> بمعنى أنّه عقل ذاتي، أو يبحث عن المصلحة الذاتية الربحية والهادفة إلى النجاح المستمر، وإن كان يتعامل مع ذوات أخرى، لكنّه لا يهدف إلى التفاهم، بل نحو الربحية الناتجة عن عقلنة وإرشاد الفعل الاجتماعي.

التقنية كمادة سياسية:

يرى هابرماس: " أنّ الكثير من المؤسسات السياسية تستغل التقنية - العملية لأغراضها المصلحية، وأصبحت أكثر المؤسسات توظيفًا للأبحاث العلمية، ورعاية للتقنية، وأصبحت القرارات السياسية تلغي تقنية معينة، وتساعد من أجل إيجاد تقنيات أخرى، هكذا لم تصبح التقنية والعلم بمعزل عن إرادة السياسي.<sup>30</sup> وهذا ما تبرهن عليه التقنية في " استحالة " أن يكون الإنسان مستقلاً في حياته ذاتيًا؛ ذلك لأنّ هذه اللاحرية لا تظهر على أنّها لا عقلانية حتّى ولا سياسية، وإنّما على أنّها خضوع لآلة التقنية التي توسّع من مدى أسباب الراحة أمام الحياة، كما ترفع إنتاجية العمل. تحمي العقلانية التكنولوجية بهذه الطريقة وقبل كل شيء قانون السيطرة، في الوقت الذي تلغيها فيه، والأفق الأداة يحوّل ذاته إلى مجتمع شمولي بطريقة عقلانية.<sup>31</sup> بالتالي يمثل خلف هذه العقلانية المظهرية - حسب هابرماس - إرادة سياسية تسعى إلى مجال السيطرة، تتمثل في إخضاع الإنسان لنظام الأشياء. فطالما قامت العقلانية على وضع الخطط بحثًا عن أفضلها، واستخدام التكنولوجيا الملائمة وتهيئة الأنظمة المناسبة والمواتية لبلوغ غايات ثابتة ومحددة، لذا فإنّ "عقلنة" شروط الحياة تعني في نهاية الأمر، تحول السيطرة إلى مؤسسة لها شرعية سياسية.<sup>32</sup> أو

كما اهتمت التقنية في مجملها بالعلوم الطبيعية الفيزيائية مع الافتقار إلى التوازن بينها وبين العلوم الإنسانية، ممّا أدى بها إلى خلق مشاكل معينة. أنتجت التقنية التسليح - المتطور التقني - النووي، الذي جعل الموت أسرع للإنسانية هكذا ينعكس التصور الوجودي على التقنية، وبذلك أصبح الإنسان يتقن صنعته من أجل موته، لقد جنّدت جميع البلدان العظمى كل ما في وسعها، من تقنية حديثة، من أجل إجراءات تأمينية لعملية الموت السريع.<sup>33</sup> هذا معناه أنّ التقنية هي الأساس الذي ارتكزت عليه النزعة الكليانية الحديثة TOTALITARIANISM من حيث كونها هي التي أنتجت التكنولوجيا العسكرية والبوليسية القادرة على التحكم من بعد.

البيوتقنية... السيطرة عبر النسالة:

هذا، وعندما تصبح التقنيات قادرة على اختراق التركيبات البيولوجية للإنسان، وإمكانية التحكم في بنيتها الجسدية، وتكوينه القيمي فإنّ هذه المرحلة تُعدّ أعنى مراحل الهيمنة والسيطرة على الإنسان بواسطة الخبراء من جهة والسياسيين من جهة أخرى.

فهذه الأخيرة شكّلت اهتمام يورغن هابرماس؛ حيث نجده يخصّص لها كتاب قد وسمه بـ "مستقبل الطبيعة الإنسانية- نحو نسالة ليبرالية" الذي يرى فيه أن التقنية تتداخل مع البيولوجيا فتنتج البيوتقنية وهذه الأخيرة تنتج بدورها إشكالية الأخلاق المصنّعة البيوتيقا، لتتدخل في طبيعة الإنسان وتحديد معلمه، فبدأ هذا التدخل الوراثي، بحافز ليبرالي هو ترك الدولة لدور تحديد النسل.<sup>34</sup> إلا أنّنا وفي مقام آخر نجد هابرماس يسجّل اعتراضا على هذه الممارسة بحيث يرى: "أنّ البحث البيولوجي وتطوّر التقنيّة الجينيّة تبدو محاولات لا طائل تحتها، على اعتبار أنّها تُثبّت الأقدام ضدّ النزعة المسيطرة اتّجاه حرّيّة أكبر تميز للحدّثة الاجتماعية."<sup>35</sup> هنا يظهر لنا دور السياسي في تحديد الإنسان المصنّع حسب إطار إيديولوجي- سياسي معين، ودوره في قمع حرية الإنسان، ودور التقنية في السيطرة عليه والنيل منه وتحقيق الأمر برمته، إذ تخترق التقنية الجينية في منظور هابرماس ثلاثة مبادئ من حقوق الإنسان:

" فالحرية تدخل في تحديد أفعال الأفراد مستقبلاً، والمساواة عند استهلاك والتّغيير في الأجنّة، تنتهي بالضرورة إلى خلق تراتبات في الكائن الإنساني، لأنّ هناك اختلاف كبير بين الشخص المعدّل جينياً والشخص الطبيعي، أمّا الكرامة فالتلاعب بجينوم الأفراد الذين لم يولدوا بعد وهذا يعدّ انتهاكاً لكرامة الإنسان فهذا التلاعب لا يترك مجالاً لحرية الفرد في القبول والرفض ممّا يقضي على إنسانيته."<sup>36</sup> " بل إنّ تحسين النسل كممارسة ليس بعيداً عن ما فعلته الإيديولوجيات العنصرية، التي ظهرت في بداية القرن العشرين، فما مارسته النازية من تطهير عرقي، واختيار نسل معين للحياة دون غيره، ممكن أن نعكسه تماثلياً على ما يفعله أهل الحاضر " علماء سياسيون" في الانحياز وصناعة نوع من العنصرية، إن لم تكن محدّدة سلفاً كإرادة سياسية."<sup>37</sup>

في الأخير يمكن القول رغم أنّ المجتمعات الحدائية أو التي تعرف بمجتمعات ما بعد الأيديولوجيا، حاولت إقصاء كل ما هو أيديولوجي وأنّ تتحرر من كل ما يمكن أن يحدّ من حريتها الفكرية والمرجعية، أضحت فقط تؤمن بالعلم والتكنولوجيا، واستبعاد ما دون ذلك، إلا أنّ تلك المحاولة لم تتكلل بالنجاح.

فالأمر الذي حاولوا الهروب منه تمّ الوقوع فيه، وأصبحت التكنولوجيا التي من المفروض أن تحرّر العقول هي من تستعبد وتسيطر عليه، فهذه السيطرة لم يعد لها ذلك الطابع القمعي الهيميني، بل تحول إلى نوع من السيطرة المعقلنة، فإذا كانت السيطرة التقليدية حسب هابرماس سياسية، فقد تغيّرت الآن وأخذت منحى آخر أكثر تحقّقياً ممّا كانت عليه سابقاً، لذلك برزت لأيديولوجية التقنية وأصبح أفراد المجتمع يؤمنون بما كمخلّص لهم ومنجي من كل المخاطر.

هوامش البحث:

<sup>1</sup> كرام محمود عزيز، أساطير العالم القديم، مكتبة الناظفة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007، ص223

<sup>2</sup> كرام محمود عزيز، أساطير الثورات الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة، سورية دمشق، الطبعة الأولى، 1999 ص104

<sup>3</sup> سفر أشيعاء، الإصحاح السابع والعشرون، الآية 1-5

<sup>4</sup> سفر أيوب، الإصحاح الثالث، الآية 6-9

<sup>5</sup> سيد القمني، الأسطورة والتراث، المركز المصري لبحوث الحضارة، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1999، ص59

<sup>6</sup> كرام محمود عزيز، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، ص105

<sup>7</sup> المرجع نفسه، ص106

<sup>8</sup> أنس داوود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، القاهرة، دار الجيل 1975 ص34

<sup>9</sup> إمام عبد الفتاح إمام، توماس هوبز فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د(ط)، 1985، ص285

- <sup>10</sup> سفر أيوب، الإصحاح الأربعون، الآية 12-34
- <sup>11</sup> أحمد كمال زكي، الأساطير، بيروت دار العودة 1979 ص 55
- <sup>12</sup> موسى ابراهيم، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، دار المنهل اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 2011، ص 97
- <sup>13</sup> توماس هوبز، اليقيانان الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، ترجمة ديانا حرب بشرى صعب، مراجعة و تقديم رضوان السيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمه، الطبعة الأولى، 2011 ص 179
- <sup>14</sup> جورج زيناتي، رحلات داخل الفلسفة الغربية، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1993، ص 141
- <sup>15</sup> المرجع نفسه، ص 142
- <sup>16</sup> مصطفى حسيبه، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن عمان، الطبعة الأولى، 2009، ص 60
- <sup>17</sup> فرانسوا شاتليه، تاريخ الإيديولوجيات، من الكنيسة إلى الدولة، الجزء الثاني، ترجمة أنطوان حمصي، منشورات وزارة الثقافة، سورية، د(ط)، 1997، ص 335
- <sup>18</sup> مراد فوح المحامي، سفر أيوب "معرباً عن أصله العبري ومنظوماً ومشروحاً ومفسراً"، مطبعة العالم العربي، القاهرة، د(ط)، 1950، ص 485
- <sup>19</sup> مراد فوح المحامي، سفر أيوب "معرباً عن أصله العبري ومنظوماً ومشروحاً ومفسراً"، مطبعة العالم العربي، القاهرة، د(ط)، 1950، ص 485
- <sup>20</sup> سفر أيوب، الإصحاح الأربعون، الآية 15-24
- <sup>21</sup> بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، ترجمة محمد علي اليوسفي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، دار الفارابي، بيروت، لبنان، د(ط)، 2006، ص 55
- <sup>22</sup> المرجع نفسه، ص 51
- <sup>23</sup> علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحدثة، من فلسفة الذات إلى فلسفة التواصل هيرماس أنموذجاً، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2011، ص 161
- <sup>24</sup> كمال بومنبر، جدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، الدر العربية للعلوم، ومنشورا الاختلاف، ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، لبنان، الجزائر، الإمارات، الطبعة الأولى، 2010، ص 57
- <sup>25</sup> بول ريكور، محاضرات في الايدولوجيا واليوتوبيا، تقلد جورج ه تيلور، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، 2002، ص 314
- <sup>26</sup> علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحدثة، ص 164
- <sup>27</sup> نبيل مرسي خليل، التخطيط الاستراتيجي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، - مصر، 1994، ص 18
- <sup>28</sup> آلن هاو النظرية النقدية مدرسة فرانكفورت، ترجمة ثائر ديب، دار العين للنشر والمركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى 2010، ص 267
- <sup>29</sup> جيمس جوردن فينيلسون، يورغن هابرماس، ترجمة أحمد محمد الروبي، مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010، ص 64
- <sup>30</sup> علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحدثة، ص 168
- <sup>31</sup> يورغن هيرماس، العلم والتقنية كأيدولوجيا، ترجمة حسن صقر، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، الطبعة الأولى، 2003، ص 46
- <sup>32</sup> سالم يفوت: المناحي الجديدة في الفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1999، ص 94
- <sup>33</sup> علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحدثة، ص 168
- <sup>34</sup> يورغين هابرماس، مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، ترجمة جورج كتوره، المكتبة الشرقية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2006، ص 39
- <sup>35</sup> قيس ناصر راهي، مرتكزات التوتاليتارية العراقية رؤية حنة أرنة مدخلًا، مركز الدراسات البصرة الخليج العربي، البصرة، ص 415
- <sup>36</sup> يورغين هابرماس، مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، ص 91-93
- <sup>37</sup> علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحدثة، ص 173